الرؤية الكونية لأهل البيت (ع) في إثبات موجودية المبدأ الإلهي ودلالاتها القرآنية

حيدر فليح جبر

أ.د فاضل مدب المسعودي

المقدمة

إن الحديث عن الرؤية الكونية الدينية من منظور أهل البيت (عليهم السلام) يُعد حديثاً متكاملاً ومطابقاً لما ورد عنها في القرآن الكريم؛ الذي حاول أن يجسد هذه الرؤية من خلال عرضها وبيانان ما يرتبط بها عبر النصوص القرآنية الكريمة، باعتباره تبيان لكل شيء، وأن كمال الإنسان بكمال وتمام معرفته، وقد خلقه الله تعالى لتحقيق هذا الغرض الإلهي الرفيع، فمن الضروري أن يبين له ما يحتاج إليه في الوصول إلى هذا الكمال، وقد اصطفى من بين خلقه أمناء لوحيه وعلماء به، وهم محمد وآل محمد (صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين)، الذين عبرنا عنهم في هذا المقال بأهل البيت (عليهم السلام)، وبما أن البحث عن الرؤية الكونية الدينية، فإنه يكون شاملاً لجميع أبعادها وأركانها الثلاثة، كما خصصنا لذلك بحث اطروحتنا له، ولكن بما أن المجال لا يسع في هذه المقالة، فقد اقتصرنا البحث عن إثبات موجودية المبدأ الإلهي الموجب لوجود عالم الإمكان بما فيه جميع الموجودات المادية والمجردة، وقد جاء اختيارنا لهذه القسم مما يرتبط بالركن الأول من أركانها (المبدأ الإلهي) المرتبط بخصوص إثبات موجوديته في قبال من يشكك في وجوده، لأهميته ودوره بالنسبة لسائر أركانها الاخرى، فهو القاعدة التي يستند إليها في إثبات بقي المسائل الأخرى، كما أن رؤية أهل البيت (عليهم السلام) جاءت مطابقة ما جاء في القرآن الكريم بهذا الخصوص، كما تكشف لنا رواياتهم الشريفة وما ورد في تصديقها من قبل القرآن الكريم كما سيتضح لنا ذلك جلياً من خلال عرض وبيان هذه المقالة، التي انتهجنا فيها المنهج الاستقرائي الوصفي تارة، والتحليلي تارة أخرى، لما ورد عنها في الروايات وتصديقها من قبل القرآن الكريم، وهي روايات كثر نقلنا منها على سبيل المثال لا الحصر؛ إذ وجدناه تتحدث عن إثبات موجودية المبدأ الإلهي وتعده من الأمور البديهي المتسالم عليها لدى الجميع، وكأنها بذلك

تشير إلى دفع التوهيم عن التشكيك بموجوديته، كما قال تعالى: ﴿ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾(ابراهيم / ١٠)، وهذا ما سنتناول من خلال أربعة أمور.

الكلمات المفتاحية :

الرؤية الكونية، المبدأ الإلهي ، أهل البيت ، القرآن الكريم ، الموجود

الأمر الأول: إثبات وجود المبدأ بالفطرة

روى الكليني بسند عن الإمام الصادق(عليه السلام) أنّه قال:«... إنّ الله عز وجل خلق الناس كلهم على الفطرة التي فطرهم عليها، لا يعرفون إيماناً بشريعة ولا كفراً بجحود، ثم بعث الله الرسل تدعوا العباد إلى الايمان به، فمنهم من هدى الله، ومنهم من لم يهده الله»[i]، فهذه الرواية تبيّن أن المعرفة الفطرية إنما هي معرفة إجمالية بالله تعالى تقوم على أساس الإيمان بالمبدأ الإلهي دون ما يكتنفها من تفاصيل، كما في وجوده الدنيوي، المشروط فيه الإيمان بالمعرفة التفصيلية بما جاء به الأنبياء والرسل من شرائع الدين وأحكامه، فالمؤمن هو من اهتدى بهُداهم واقتدى بهم، والكافر هو من جحد نبوتهم وأنكر بعثتهم وما جاء في شرائعهم وأحكام دينهم.

كما نجد في خطبة الإمام الرضا(عليه السلام) في جملة ما نقله عن جده الإمام الصادق(عليه السلام)، أنه قال:«...بصنع الله يستدل عليه، وبالعقول يعتقد معرفته، وبالفطرة تثبت حجته»[ii]، وهنا جاء التأكيد على حجية الفطرة في القطع على وجود المبدأ الإلهي الذي يستدل عليه بصنعه، وبالعقول على معرفته، وبالفطرة على حجيته وثبوت وجوده.

دلالة الآيات القرآنية على صدق الرؤية لاهل البيت (عليهم السلام)

إنّ البحث هنا يعتبر كأصل من الأصول المسلمة؛ وذلك بلحاظ علاقته بالميل الفطري عند الإنسان الباعث على الإيمان به بحدود المعرفة الفطرية، كما هو مقتضى طبيعة العلاقة بين الخالق والمخلوق، فإثبات وجود المبدأ الإلهي في القرآن الكريم أمراً مسلماً، واضحاً، غنياً عن البرهنة والاستدلال، ولذا فالتردد والشك في هذه الحقيقة الجلية أمراً غير مقبول وغير مبرر، قال تعالى: ﴿أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ (ابراهيم / ١٠)، ومقتضى هذا أن تكون معرفته بديهية وفطرية جُبل عليها الانسان مهما كابر وغالط؛ إذ ارتكز في اعماق نفسه وانطوى عليه ضميره بطبعه من دون تكلف، فلا حاجة للاستدلال عليه[iii]، كما يكون البحث حول بيان خصائص المبدأ الإلهي، والتي من أبرزها كونه فطرياً كما أشارت إلى ذلك مجموعة من الآيات الكريمة، من قبيل قوله تعالى: ﴿فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ

النَّاسَ عَلَيْهَا﴾(الروم/ ٣٠)، قال الطوسي:«اتبع فطرة اللَّه التي فطر الناس عليها، لأن اللَّه تعالى خلق الخلق للإيمان، ومنه قوله (صلى اللَّه عليه وآله)«كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه»[iv]، ففي هذه الآية ﴿فِطْرَتَ اللَّهِ﴾ إشارةٌ واضحةٌ إلى أن دين الإسلام الذي يجب إقامة الوجه له، هو الذي تهتف به الخلقة، وتهدي إليه الفطرة الإلهية التي لا تبديل لها[v]، فالدين الإلهي هو المعنى نفسه المبحوث عن (المبدأ الإلهي)، والاختلاف من حيث الإجمال والتفصيل، فالدين دال بشموله وعمومه للمبدأ الإلهي، فالحديث عن الدين بقيد الألوهية هو الحديث نفسه عن المبدأ الإلهي ، فلما كان الدين فطرياً، كان البحث عن المبدأ الإلهي فطرياً، بالإضافة إلى نصوص قرآنية أخرى تتضمن الحديث عن ذلك، كالتي جاءت تتحدث عن فطرية الإيمان بالله تعالى ومعرفته، قال تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: ١٩] فالإيمان بالله تعالى أمر فطري، والآية الكريمة ليست بصدد بيان جزئيات الأحكام والقوانين بكونه موافق للفطرة، بل بصدد بيان هذا النوع من الإيمان والميل الفطري عند الإنسان[vi]، وبذلك تكون الآية بإشارتها إلى الميل الفطري لعبادة الله كما هو مقتضى دلالتها المطابقية، ولكن بناءً على استحالة تحقق وجود الميل دون متعلقه؛ لذا ينبغي علينا عقلاً أن نلتزم بدلالتها على فطرية معرفة الله تعالى؛ لكي يصح تعلق الميل إلى عبادته[vii]، فالدلالة الإلزامية دالة على ذلك بلا أدنى شك وترديد.

الأمر الثاني: إثبات حكمة المبدأ واتقان صنعه

إنّ من بين الروايات الدالة على إثبات ذلك، هو ما جاء في كتاب نهج البلاغة من قول الإمام علي (عليه السلام):«الا ينظرون الى صغير ما خلق ؟ كيف احكم خلقه واتقن تركيبه، وفلق له السمع والبصر، وسوى له العظم والبشر، انظروا الى النملة في صغر جثتها ولطافة هيئتها لا تكاد تنال بلحاظ البصر ولا بمستدرك الفكر، كيف دبت على ارضها وصبت على رزقها، تنقل الحبة الى جحرها وتعدها في مستقرها، تجمع في حرها لبردها وفي وردها لصدرها... فالويل لمن انكر المقدر وجحد المدبر...»[viii].

وله (عليه السلام) وصف رائع لخلقة النحل والخفاش والطاووس ما يستدل به على وجود الله تعالى وقدرته وعلمه وحكمته واتقانه[ix].

بالإضافة إلى ما رواه الكليني بسنده عن الإمام الصادق(عليه السلام)؛ إذ قال:«استدلوا بعقولهم على ما رأوا من خلقه، من سمائه وارضه، وشمسه وقمره، وليله ونهاره، بأن... لهم خالقاً ومدبراً لم يزل ولا يزول»[x]. فالتدبير يقتضى الاستدلال على الحكمة واتقان الشيء، وإلى مثل ذلك قال به(عليه السلام) إلى المفضل بن عمر«يا مفضل، أول العبر والأدلة على الباري – جل قدسه – تهيئة هذا العالم وتأليف أجزائه ونظمها على ما هي عليه، فإنك إذا تأملت العالم

بفكرك وميزته بعقلك، وجدته البيت المبني المعد فيه جميع ما يحتاج إليه عباده، فالسماء مرفوعة كالسقف، والأرض ممدودة كالبساط، والنجوم منضوده كالمصابيح، والجواهر مخزون كالذخائر، وكل شيء فيها لشأنه معد، والإنسان كالمالك ذلك البيت والمخول جميع ما فيه. وضروب النبات مهيأة لمأربه، وصنوف الحيوان مصروفة في مصالحه ومنافعه، ففي هذا دلالة واضحة على أن العالم مخلوق بتقدير وحكمة، ونظام وملائمة، وأن الخالق له واحد وهو الذي ألفه ونظمه بعضاً إلى بعضٍ»[xi].

وروى الكليني أيضاً بسنده عن الإمام الرضا(عليه السلام) أنّه قال:«اني لما نظرتُ الى جسدي، ولم يمكني فيه زيادة ولا نقصان في العرض والطول ودفع المكاره عنه وجر المنفعة اليه، علمت ان لهذا البنيان بانياً؛ فأقررتُ به مع ما ارى من دوران الفلك بقدرته وانشاء السحاب، وتصريف الرياح، ومجرى الشمس والقمر والنجوم، وغير ذلك من الآيات العجيبات المبينات علمتُ انّ لهذا مقدراً ومنشئاً»[xii].

فوضوح الاستعانة بالدلائل والمعطيات العقلية على إثبات حكمة واتقان المبدأ الالهي في مثل هذه النصوص، يأتي بناءً على قاعدة التلازم بين الفعل والأثر المتقن والمتوازن[xiii].

دلالة الآيات القرآنية على صدق الرؤية لاهل البيت (عليهم السلام)

هناك العديد من النصوص القرآنية المؤيدة لما جاء في روايات أهل البيت (عليهم السلام) بما يرتبط باتقان الصنع والخلق، وهو مما يدل على حكمته ووادنيته تعالى، ومن قبيل ما جاء في قوله تعالى: ﴿صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ (النمل/ ٨٨)، وقوله تعالى: ﴿مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ ﴾ [الملك: ٣] ، وقوله تعالى: ﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴾(النحل / ١٣)، وقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ (١٧) وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ (١٨) وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ (١٩) وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ (الغاشية: ١٧-٢٠)

إنّ من ايسر البراهين العقلية تناولا للجميع هو برهان النظم، وهو من الطرق الموصلة إلى معرفة الله تعالى، والقائمة على أساس التدقيق في حقيقة النَظم و التناسق والاتقان السائد على أجزاء هذا الكون الفسيح من الذرة و حتى المجرة من دون استثناء و تتبع علته، وهذا التدقيق والتأمل كفيل بإثبات وجود خالق لهذا الكون[xiv]، كما يثبت بان هذا الخالق لا يمكن إلا أن يكون عاقلاً عالماً قادراً وهادفاً، إذ أن حقيقة النظم تكمن في أمور ثلاثة وهي:

الأول: وجود ترابط تام بين أجزاء متنوعة ومختلفة كماً وكيفاً.

الثاني: وجود ترتيب و تناسق دقيق بينها، يجعل التعاون والتفاعل فيما بينها ممكناً

الثالث: وجود الهدف والغاية من إيجاد هذا العالَم المنظم.

والنصوص القرآنية اعطت لهذا البرهان اهتماماً بالغاً، إذ أشارت اليه في العديد من الآيات الكريمة التي تدعو الانسان الى التفكر في الكون وما فيه من نظم و اتقان و تناسق، ومن خلال هذا التفكر والمطالعة للنظام الكوني يهتدي الانسان الى وجود المبدأ الالهي ويعرف حكمته، ومنها:

قوله : ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (البقرة/ ١٦٤).

وقوله : ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣].

وقوله : ﴿ قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ (يونس / ١٠١).

وقوله : ﴿ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا ﴾ (الفرقان/٢).

فهذه الآيات المبيّنة لتدبير العالم وتفاصيل الحياة الدقيقة وحركتها المتقنة ونظامها العجيب السائد من الذرات إلى المجرات تشير إلى أن العقل يدرك دون شك أن ذلك لم يكن صدفة أو جزافاً، بل لا بد أن يعود إلى خالق حكيم ومدبر، ﴿ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ (النمل/ ٨٨)،﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ﴾ (الملك/ ٣).

ومن هنا يتضح لنا أهمية دعوة القران الكريم الإنسانَ إلى التفكّر والتدبّر في سُنن هذا الكون وقوانينه الدقيقة، ويدعو إلى التعمق في الأثر، والتدبّر في خصوصياته حتى يهتدي إلى المؤثر وخصوصياته، وكثيرا ما يشير إلى لفظة " الآية " أو " الآيات"، وهي من قبيل: قول الله تعالى: ﴿ يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (النحل / ١١). و قوله عَزَّ وجَلَّ: ﴿ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴾(النحل / ١٣). و قوله عَزَّ مِنْ قائل: ﴿ وَاللّهُ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾(النحل / ٦٥). و قوله جَلَّ جَلالُه: ﴿ وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾(النحل / ٦٧). و قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاء لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾(النحل / ٦٩).

وما يميز هذه الآيات عن غيرها أنها تحاكي سائر أصناف الناس دون فرق بين العالم أوغيره، فهي تثير في النفس والعقل مبادئ بديهية كامنة، وهي أن هذا الخلق وهذا النظام العجيب لا بد أن ينتهي إلى ناظم وخالق ومدبر

حكيم.

الأمر الثالث: إثبات علّية المبدأ الإلهي لكل شيء

من الروايات أهل البيت (عليهم السلام) التي تعرضت لهذا البرهان كثيرة، نذكر منها ما جاء في نهج البلاغة من قول الإمام علي(عليه السلام):«الحمد لله الذي لا تدركه الشواهد، ولا تحويه المشاهد، ولا تراه النواظر، ولا تحجبه السواتر، الدال على قدمه بحدوث خلقه، وبحدوث خلقه على وجوده»[xv]، وفيها قد استدل بذلك على إثبات عليته لجميع مخلوقاته.

ومنها ما رواه البرقي عن الإمام زين العابدين (عليه السلام):«العجب كل العجب لمن شك في الله وهو يرى الخلق»[xvi]. فالتعجب هنا ناتج من شدة وضح وجود المبدأ الإلهي وظهوره للأعيان بمظاهر خلقه، فكيف يمكن أن يُنكر وجوده ، ويشك فيه، وهو يَرى آيات صنعه، واتقان حكمت في كل شيء، فهو تعالى علة لكل شيء.

ومنها ما رواه الصدوق بسنده عن الإمام الصادق(عليه السلام)في جوابه على سؤال أبي شاكر الديّصاني حينما سأله:« ما الدليل على أن لك صانعاً؟ فقال: وجدت نفسي لا تخلو من إحدى جهتين: إما أن أكون صنعتها أنا أو صنعها غيري، فإن كنت صنعتها أنا فلا أخلو من أحد معنيين: إما أن أكون صنعتها وكانت موجودة، أو صنعتها وكان معدومة، فإن كنت صنعتها وكانت موجوده فقد استغنت بوجودها عن صنعتها، وإن كانت معدومة فإنك تعلم أن المعدوم لا يحدث شيئا، فقد ثبت المعنى الثالث لي صانعا وهو الله رب العالمين»[xvii]، هناك يُجيب الامام عن سؤال مهم في اثبات وجود الصانع ويستخدم له دليل حساب الاحتمالات في اثبات علة وجود الخلق وفق المعطيات العقلية. وايضا قال(عليه السلام) له لما سأله عن حدوث العالم « فدعا الامام ببيضة فوضعها على راحته فقال: هذا حصن ملموم، داخله غرقى رقيق لطيف به فضة سائلة و ذهبة مائعة، ثم تنفلق عن مثل الطاووس، أدخلها شي ؟ فقال: لا. قال (عليه السلام) فهذا دليل على حدوث العالم»[xviii].

وفيها دلالة صريحة على إثبات عليته وصانعيته لكلّ شيء.

دلالة الآيات القرآنية على صدق الرؤية لاهل البيت (عليهم السلام)

هذا ما دلت عليه الآيات الكريمة التي تشير إلى تفرد في الخلق وأن أنه أصل وجود كل شيء وخالقيته، ومنها:

قوله تعالى: ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ أَمْ خَلَقُوا لسَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بَل لاَّ يُوقِنُونَ أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ﴾(الطور/٣٥-٣٧).

نلاحظ أن القرآن الكريم استدل على وجود المبدأ الالهي بالدليل العقلي، الذي هو قوام المعرفة البشرية. فالقرآن يقول: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ وهذا الاستدلال العقلي يتضمن أربعة احتمالات[xix] في كون الإنسان موجوداً:

الاول: إما أنه وُجِد بلا سبب. فهذا خلف لقانون السببية: لكل مسببٍ سبب.

الثاني: أو أنه وُجِد من العدم ؛ يعني اللاشيء أنتج شيئا، وهذا غير معقول؛ لان "فاقد الشيء لا يعطيه"، ولذلك قال: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ﴾ يعني أن هذا القضية مستحيلة، وهي أن يُخلق الإنسان من لا شيء؛ لأنّ فالعدم لا ينتج الوجود.

الثالث: أو أنه أوجد نفسه. أي أن الإنسان هو الذي خلق نفسه، وهذا أيضاً محال. فكيف هو السبب وهو المسبب ؟ وهو الخالق وهو المخلوق ؟ ﴿أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾، أي في الوقت الذي هو في نفسه غير موجود، فكيف أعطى الوجود لنفسه.

الرابع: أو أن الله أوجده. فإذا بَطلَت الاحتمالات الثلاثة الأولى تعين الاحتمال الرابع، ألا وهو أن الخالق هو الله عز وجل.

و تقرير هذا البرهان: إما أن يكون الإنسان قد جاء صدفة من دون خالق له، وإما أن يكون هو الذي خلق نفسه، وإما أن يكون له خالق آخر، لكن الأول والثاني باطلان؛ لأن العقل لا يمكنه القبول بهما، فلا بد أن يكون الفرض الثالث هو الصحيح[xx].

يُشير النص القرآني في هذا القياس العقلي الى المقدمة الصغرى فقط دون الكبرى؛ لأنها بدهية فطرية، على الرغم من أن القرآن ليس كتابا فلسفيا تُصاغ بواسطته القواعد المنطقية وانّما هو كتابُ هدايةٍ وارشادٍ وفيه اشاراتٌ عقليةٌ لتنبيه المتلقي الى هذه الحقيقة المهمة وهي اثبات المبدأ الالهي.

فالآيةُ المتقدمةُ فيها إشارةٌ إلى «برهان العليّة» المعروف الوارد في الفلسفة وعلم الكلام لإثبات وجود اللّه تعالى، وهو أنّ العالم الذي نعيش فيه ممّا لا شكّ- فيه- حادث؛ لأنّه في تغيير دائم، وكلّ ما هو متغيّر فهو في معرض الحوادث، وكلّ ما هو في معرض الحوادث محال أن يكون قديماً وأزليّاً[xxi].

وقوله تعالى:﴿ أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ ﴾ (الواقعة/٥٩)، فالآية الكريمة تدل على إثبات وجود المبدأ الالهي من خلال خلقه فيرد السؤال فيها (من الذي خلق من منيكم بشراً سوياً بجميع أعضائه وغرائزه؟ أنتم أم اللّه؟.

لقد قذفتم المني في رحم المرأة وانتهى دوركم ولم تتعهدوه بشيء إطلاقاً... فمن الذي صير المني علقة، والعلقة مضغة، والمضغة عظاماً، وكسا العظام لحماً... الخ؟. فإن قلتم: كل ذلك من عمل الطبيعة وحدها. قلنا: و من أوجد

الطبيعة؟. فإن قلتم: أوجدت نفسها بنفسها. قلنا: من الذي وهبها الحياة والاحساس والإدراك؟ وان قلتم: هي. قلنا: أنّها صماء عمياء وفاقد الشيء لا يعطيه. وان قلتم: نشأت الحياة في المادة من غير قصد. قلنا: وعليه فإنّ كلامكم هذا صدر عنكم من غير قصد! ... انّ العقل لا يستسيغ أي تفسير للحياة ونظام الكون إلا بعلة فاعلة عاقلة وجدت من غير فاعل، ولا يمكن الارتقاء في سلسلة العلل الى ما لا نهاية وإلا لم يكن للوجود عين ولا أثر)[xxii].

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ (الأنعام: ١٠٢).

ففي القران الكريم آيات كثيرة تدلُ على حدوث الكون وكل ما يتعلق فيه، قال تعالى: ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾(الانعام/١٠١)، وقال تعالى:﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾(الطلاق/ ١٢).وغيرها من الآيات التي تدل على حدوث كل المخلوقات ذاتاً و زماناً.

الأمر الرابع: إثبات الحاجة والافتقار إلى المبدأ الإلهي

هناك روايات واردة عن أئمة أهل البيت(عليهم السلام) تشير الى فقر الموجودات وحاجتها الذاتية إلى المبدأ الإلهي، وأنّها دليلاً واضحاً على عدم استغنائها عنه بوجودات الخارجية، نذكر منها ما ورد في دعاء عرفة المشهو، قال الإمام الحسين(عليه السلام) في جملة دعائه:« كيف يُستدلُ عليك بما هو في وجودهِ مفتقرٌ إليك»[xxiii]، فهذا المقطع من الدعاء يصرح بأن جميع الأشياء مفتقرة بوجودها إلى المبدأ الإلهي، وأنه هو الغني عن جميع تلك الاشياء، ولا طريقَ لها في الاستغناء عنه.

ومنها ما رواه الصدوق عن الإمام السجاد علي بن الحسين (عليه السلام):« الله هو الذي يتأله إليه عند الحوائج والشدائد كل مخلوق عند انقطاع الرجاء من كل من هو دونه، وتقطع الأسباب من جميع ما سواه»[xxiv]، وهو بهذا يريد أن يبيّن فيه إظهار الافتقار والحاجة إلى المبدأ الإلهي دون سواه.

ومنها ما رواه الصدوق بسنده عن الإمام الصادق (عليه السلام)، أنّه قال:«فأنا لا نشك في الله أبداً، أما ترى الشمس والقمر والليل والنهار يلجان ولا يشتبهان، يذهبان ويرجعان، قد اضطرا ليس لهما مكان إلا مكانهما، فإن كانا يقدران على أن يذهبا فلا يرجعان فلم يرجعان؟! وإن لم يكونا مضطرين فلم لا يصير الليل نهارا والنهار ليلا؟! اضطرا والله يا أخا أهل مصر إلى دوامهما، والذي اضطرهما أحكم منهما وأكبر منهما»[xxv]، فالشاهد في هذه الرواية هو افتقار الوجودات وحاجتها الاضطرارية الى الله ، فلو أنها كانت مستغنية لذهبت بلا رجعة.

دلالة الآيات القرآنية على صدق الرؤية لاهل البيت (عليهم السلام)

الآية الأولى: قال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ [فاطر: ١٥] . تدل الآية القرآنية على كل مفردات فقر الانسان و معانيه و مواقعه، لأن الانسان بحاجة إلى الله في وجوده، لأنه سبب الوجود، واستمراره بالأسباب المباشرة أو غير المباشرة، فلا يمكن تصور الغنى عن الله لحظة واحدة، لأنّهُ محيطٌ بكل شيء ، وَ هُوَ الْغَنِيُ الْحَمِيدُ بذاته لاستغنائه عن كل شيء، لأنه خالق كل شيء، و هو المحمود في كل أفعاله[xxvi]. فالمبدأ الالهي مستغني على الإطلاق فهو المنعم على سائر الموجودات حتّى استحقّ عليهم الحمد[xxvii]، وافتقار المخلوق الى خالقه لا ينقطع أبداً كافتقار واحتياج المعلول الى علته، والمسبب الى سببه[xxviii].

الآية الثانية: قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ﴾[محمد: ٣٨] . وتدل أيضاً على نفس المعنى الذي دلت عليه الآية الاولى في كون المبدأ الالهي غني ومستغني عن كل شيء. قال التستري:« معرفة السر كله في الفقر، وهو سر اللّه، وعلم الفقر إلى اللّه تعالى تصحيح علم الغنى باللّه عزّ و جلّ»[xxix].

الآية الثالثة: قوله تعالى: ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾ [فاطر: ١٣]. فإنّ حقيقة الممكن، حقيقة مفتقرة لا تملك لنفسها وجوداً وتحقّقاً ولا أيّ شيء آخر، وإنّ هذه الآيات يمكن أن تكون ناظرةً إلى (برهان الإمكان)، لأنّ التركيز في هذه الآية واقع- كما نرى- على مسألة (الفقر والاحتياج) الكائنين في الانسان والملازمين للكيان الإنساني حتى بعد وجوده، ملازمة الظل للشاخص. حيث أنّ الفقر والاحتياج عين الإمكان أو ملازم له، لأنّ الممكن يفقد- بطبيعته- الوجود، والعدم، إذا قيس ب «واجب الوجود» و «ممتنع الوجود»، ولذا فالممكن في حد ذاته مفتقر في اتصافه بإحدى الحالتين_ الوجود والعدم_ إلى العلة التي توجده، أو تعدمه[xxx].

وبعد النظر والتدقيق في كثير من النصوص القرآنية يظهر للباحث: انّ لبعض النصوص القابلية للانطباق على أكثر من دليل على إثبات وجود الله ، وهذه النصوص لها أكثر من وجه، فبعض الآيات تشير إلى عظمة الخالق وبديع النظم، وفي نفس الوقت تُشيرُ إلى ان جميع المخلوقات ممكنة، وهي بحاجة إلى الله تعالى في خروجها من العدم الى دائرة الامكان.

فمن هذه الآيات قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢) يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ (١٣) إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ (١٤) يَاأَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ [فاطر: ١٢-١٥]

فهذه الآيات القرآنية ونحوها تُثبتُ أنّ الإنسانَ وسائر الموجودات مفتقرة إلى الله في وجودها ومحتاجة في ذواتها وآثارها، فهي محتاجة إليه في الإيجاد والخلق وفي البقاء واستمرار الحياة، وهذا بخلاف ما يذهب اليه المتكلمون إذ أنّهم يرون أنّ الاحتياج الى العلّة في الحدوث فقط دون البقاء والاستمرار، بينما يرى الفلاسفة أن المعلول يحتاج الى علته حدوثاً وبقاءً [xxxi].

النتيجة النهائية

اتضح للباحث من خلال مجموع هذه الروايات الشريفة وما ورد عنها في القرآن الكريم مما يؤكد صحتها ومطابقتها للنصوص القرآنية ودلالاتها المعرفية، أن مسألة إثبات موجودية المبدأ الإلهي من المسائل الضرورية، بل من البديهيات الأولية التي لا يتحتاج إلى مزيد نظر وتأمل، بل تصور موضوعها ومحمولها كاف في إثبات الحكم لها، ولأجل هذا جعلها الحق تبارك وتعالى من المسائل الفطرية التي جبل الإنسان عليها، ولذا عدّ من يشكك بها مخالف بذلك لفطرته، قال تعالى: ﴿ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ﴾ فالاستفهام هنا استفهام تعجب واستغراب ممن يشكك في هذه الحقيقة الجلية لكل إنسان، وهذا ما كشفته عن روايات أهل البيت (عليهم السلام)، من خلال بيانه لفطريته واتقان صنعه الدال على حكمته وافتقار جميع المخلوقاته إليه وعلّيته لها، وهذا ما جاء تأكيده من قبل النصوص القرآنية، فثبت أنهم بذلك لسان القرآن الناطق بآياته الكريمة.

---

[i]) الكليني، الكافي، ٢ / ٤١٧.(

[ii]) الصدوق، التوحيد، ٣٦ ؛ وعيون أخبار الرضا (عليه السلام)، ٢/ ١٣٥.(

[iii]) ظ:: الحكيم ، اصول العقيدة / ٥٧ .(

[iv]) الطوسي، التبيان في تفسير القرآن / ٨ / ٢٤٧(

[v]) ظ: الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن/ ١٦/ ١٧٨.(

[vi]) ظ: اليزدي، معارف القرآن / ١/ ٤٢ – ٤٤. (

[vii]) ظ: م.ن / ٤٤.(

[viii]) الشريف الرضي، نهج البلاغة، خ ١٨٥.(

[ix]) المصدر نفسه.(

[x]) الكليني، الكافي، ١ / ٢٩.(

[xi]) الجعفي، توحيد المفضل/١٦.(

) الكليني، الكافي، ١ / ٧٨.[xii](

) ظ: رباني گلپايگاني، الإلهيات في مدرسة أهل البيت، ٦٩.[xiii](

) ظ: السبحاني، محاضرات في الالهيات / ٢١.[xiv](

) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة / ١٣/ ٤٤.[xv](

) البرقي، المحاسن / ١ / ١٦٢ [xvi](

) الصدوق، التوحيد / ٢٩٠.[xvii](

) الصدوق، التوحيد / ٢٩٠. [xviii](

www.almoneer.org) ظ: الخباز، الإعجاز المعرفي في القرآن الكريم، موقع المنير: [xix](

) ظ: اليزدي، معارف القرآن/ ١/ ٢٧.[xx](

) ظ: مكارم الشيرازي، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل ١٧ / ١٨٧.[xxi](

) مغنية، التفسير الكاشف / ٧ / ٢٢٧ .[xxii](

) ابن طاووس، اقبال الأعمال، ٣٤٩.[xxiii](

) الصدوق، التوحيد / ٢٣١.[xxiv](

) الصدوق، التوحيد/ ٢٩٤ و٢٩٥.[xxv](

) ظ: فضل الله، من وحى القرآن / ١٩ / ٩٩.[xxvi](

) ظ: الفيض الكاشاني، تفسير الصافي / ٤ / ٢٣٥.[xxvii](

) ظ: مغنية، التفسير الكاشف / ٦ / ٢٨٤[xxviii](

) التستري، تفسير التستري / ١٤٦.[xxix](

) ظ: السبحاني، مفاهيم القرآن/ ١/ ١٣٨[xxx](

) ظ: ابن سينا، الشفاء- (الإلهيات)/ ٢٦٤؛ ظ: الشيرازي، الحكمة المتعالية/ ٢/ ٢١٤ و٢١٥؛ ظ:العلامة الحلي، كشف [xxxi](
المراد / ١١٥ و١١٦؛ ظ: اللاهيجي، شوارق الإلهام/ ١/ ١٣٨ و١٣٩.

المصادر والمراجع

- **القرآن الكريم**
- **نهج البلاغة**

١. ابن سينا، الحسين بن عبدالله(ت٤٢٧ه)، كتاب الشفاء، ت: حسن زاده املي، دار الاضواء، بيروت، د. ط(٢٠٠١م).
٢. ابن طاووس، ابي القاسم علي بن موسى(ت٦٦٤ه)، اقبال الاعمال، ت: حسين الاعلمي، مؤسسة الاعلمي، بيروت، ط١ (١٤١٧ه).
٣. البرقي، أحمد بن محمد بن خالد(ت٢٧٤ هـ) المحاسن، ت:المحدث، جلال الدين، دار الكتب الإسلامية، قم ، ط٢ (١٣٧١ هـ).
٤. التستري، سهل بن عبد الله(ت ٢٨٣ ه)، تفسير التستري، ت: عيون السود، محمد باسل، دار الكتب العلمية، منشورات محمد علي بيضون، بيروت، ط١ (١٤٢٣ ه).
٥. الجعفي، المفضل بن عمر(ت١٦٠ه)، التوحيد، دار القارئ للطباعة والنشر، لبنان، بيروت، ط١ (١٤٣٥ه_٢٠١٤م).
٦. الحكيم، محمد سعيد(معاصر)، اصول العقيدة، دار الهلال، النجف الاشرف، ط٤ (١٤٣١ه_٢٠١٠م).
٧. الخباز، عالم الذر وآثاره الروحية: موقع المنير: www.almoneer.org
٨. الرباني گلپايگاني، الإلهيات في مدرسة أهل البيت، ٦٩.

٩. السبحاني، جعفر(معاصر)، الإلهيات على هدي الكتاب و السنة و العقل، مؤسسة الإمام الصادق، قم المقدسة، د. ط (١٤١٣ه).
١٠. السبحاني، جعفر(معاصر)، مفاهيم القران، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، ط١ (١٤٣١ه_٢٠١٠م).
١١. الشيرازي، صدر الدين محمد بن ابراهيم(ت١٠٥٠ه)، الحكمة المتعالية في الاسفار العقلية الاربعة، دار احياء التراث، بيروت، د.ط (١٩٩٢م).
١٢. الشيرازي، ناصر مكارم (معاصر)، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، الناشر: مدرسة الإمام علي بن أبي طالب(عليه السلام)، قم المقدسة، ط١ (١٤٢١ هـ).
١٣. الصدوق، ابو جعفر محمد بن علي(ت٣٨١ه)، التوحيد، ت: علي اكبر غفاري، مؤسسة الاعلمي، بيروت، ط١ (١٤٢٧ه).
١٤. الصدوق، ابو جعفر محمد بن علي(ت٣٨١ه)، عيون اخبار الامام الرضا، ت: حسين الاعلمي، مطبعة ذوي القربى، قم المقدسة، ط١ (١٤٢٧ه).
١٥. الطباطبائي، محمد حسين (معاصر)، الميزان في تفسير القرآن، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، لبنان، بيروت، ط٢ (١٣٩٠ﻫ).
١٦. الطوسي، محمد بن الحسن(ت ٤٦٠ ه)، التبيان في تفسير القرآن، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١(د. ت) .
١٧. العلامة الحلي، جمال الدين(ت٧٢٦ه)، كشف المراد في شرح تجريد الاعتقاد، مؤسسة الاعلمي، لبنان ، د. ط (١٩٩٨م).
١٨. فضل الله، محمد حسين(معاصر)، من وحي القرآن، دار الملاك، بيروت، ط١ (١٤١٩ه).
١٩. الكليني، محمد بن يعقوب(ت٣٢٩ هـ)، الكافي، ت: علي اكبر غفاري ومحمد آخوندي، دار الكتب الاسلامية، طهران، ط:٤ (١٤٠٧ هـ).
٢٠. اللاهيجي، عبد الرزاق بن علي(ت١٠٧٢ه)، شوارق الإلهام في شرح تجريد الكلام، ت: أسد علي زاده، أكبر، مؤسسة الإمام الصادق، قم المقدسة، د. ط (١٤٢٥ه).
٢١. لفيض الكاشاني، محمد بن شاه مرتضى(ت ١٠٩١ ه)، تفسير الصافي، مكتبة الصدر، طهران، ط٢ (١٤١٥ ه).
٢٢. المعتزلي، ابن أبي الحديد، عبد الحميد بن هبة الله (ت٦٥٦ه)، شرح نهج البلاغة، ت: إبراهيم، محمد أبو الفضل، مكتبة المرعشي النجفي (ره)،قم المقدسة، د. ط.
٢٣. مغنية، محمد جواد (معاصر)، التفسير الكاشف، دار الكتاب الإسلامي، ايران، قم، ط١،(١٤٢٤ه).
٢٤. اليزدي، محمد تقي المصباح(معاصر)، معارف القران، تعريب: محمد عبدالمنعم الخاقاني، الدار الاسلامية للطباعة والنشر، لبنان، ط٢ (١٤٠٨ه)